الباب الثالث

الأخلاق الإسلامية :
ارتقاء بالإنسان إلى كمالاته كلها

إن الفارق بين الإنسان والحيوان هو أن الإنسان بما أوتى من طاقات كان مكلفاً، وأن الحيوان لنقصان طاقته لم يكلفه الله بشيء، وأن الإنسان الذى يرفض أن يقوم بعبء التكليف قد أقام بمنزلة الحيوان. ولذلك فقد سقط عن رتبة الإنسانية. وقد ذكر الله عز وجل فى أكثر من آية من القرآن أن الكافرين ليسوا جديرين بصفة الإنسانية بل هم حيوانات، وشر الحيوانات، لأنهم عطلوا حكمة وجودهم:

﴿ أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : ١٧٩].

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الأنفال : ٥٥].

وقد يغضب بعض الناس لهذا الكلام، ولكن لو تأملت حال الكافرين وجدت عمليا إنهم يعتبرون الحيوانية هى المثل الأعلى، ويسعون للإرتقاء نحوها! فهؤلاء الذين يدخلون نوادى العراة لماذا يفعلون هذا؟ أليس من أجل تقليد الحيوان؟ وهؤلاء الذين يرون إباحة الزنا مع أى امرأة أليسوا يقلدون ما تفعله كثير من الحيوانات ويأباه بعضها؟ وهؤلاء الذين لا تضبط تصرفاتهم بميزان صحيح دقيق ما الفارق بينهم وبين عالم الحيوان؟.. إن الحقيقة السافرة أن الكافر عمليا طريقه فى الحياة هو الإنغماس فى حمأتها. وإذن فالحقيقة التى لا شك فيها أن الكافر يعطل جوانب إنسانيته.

والحقيقة أن كل ما كلفنا الله عز وجل هو تأكيد لإنسانيتنا، ورفع لمستواها، والسير فى خط التميز عن الحيوان إلى منتهاه، ولا نقصد بالتميز الذى يفقد الإنسان حياته بألا يأكل، وألا يتزوج ليتناسل، فهذا شيء لابد منه لاستمرار الحياة البشرية والحيوانية وحتى النباتية، ولكن نعنى بالتميز التميز العقلى والروحى والأخلاقى والسلوكى والاجتماعى، الذى يجعل للحياة معنى، وللإنسانية خصائصها الواضحة.

(١)

إن الله عليم وجعل عند الإنسان استعداداً للعلم، والله مريد وجعل للإنسان إرادة، والله قادر وجعل للإنسان قدرة، والله حى وجعل للإنسان حياة، والله سميع

وجعل الإنسان سميعا، والله بصير وجعل الإنسان بصيراً، والله متكلم وجعل الإنسان متكلماً، والله حكيم وجعل عند الإنسان استعداداً للحكمة، والله كريم، وجعل عند الإنسان استعداداً للكرم، والله رحيم، وجعل عند الإنسان استعداداً للرحمة، والله هاد وجعل عند الإنسان استعداداً للهداية، والله حليم، وجعل عند الإنسان استعداداً للحلم، والله مضل، وجعل عند الإنسان استعداداً للإضلال، والله متكبر، وجعل عند الإنسان استعداداً للتكبر، والله منتقم، وجعل عند الإنسان استعداداً للانتقام، والله منعم، وجعل عند الإنسان استعداداً للإنعام. والله على، وجعل عند الإنسان استعداداً لطلب العلو، وما من صفة لله، أو اسم إلا والإنسان عنده استعداداً وقابلية للتخلق به، إلا ما انفردت به الذات الإلهية عن مخلوقاتها من قدم ووحدانية وبقاء.. هذا مع ملاحظة أن هذه عند الخلق غيرها عند الله. والله سميع وليس كسمعه شيء، وبصير وليس كبصره شيء، ومريد وليس كإرادته شيء.. وهكذا..

(٢)

وبهذا الاستعداد الأخلاقى العظيم عند الإنسان كان أهم حاجة فى بعثة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تقويم أخلاق الإنسان، ورسم الطريق لهذه الأخلاق كى تسير فى طريقها الفطرى:

قال ﷺ: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) قال تعالى: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [البقرة: ١٥١].

وكان مدار نجاح الإنسان عند الله أو سقوطه على أخلاقيته قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** [الشمس: ٧ – ١٠].

قال ﷺ: (إن أقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون).

وأول الطريق فى تزكية النفس البشرية، ضبط استعداداتها الأخلاقية بمعيار العبودية لله، فلا يظهر خلق من أخلاقها إلا فى الحدود التى حدها الله عز وجل للإنسان على لسان الرسل.

فإذا كانت الكبرياء والعظمة لله، وإذا كان الإنسان عنده استعداداً للتكبر والتعاظم فإن تكبره وتعاظمه بغير حق، أما كبرياء الله فبحق، وأما عظمة الله فبحق، وعلى هذا فكمال الإنسان أن لا يجعل هذا الاستعداد عنده ينمو، بل كماله أن يتخلق بضده.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه (العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى فيهما قصمته) أو كما قال عليه السلام. وإذا كان الله رحيماً والإنسان رحيماً، فرحمة الله مطلقة لا يحدها إلا مراده، وأما الإنسان فرحمته لا يصح أن تنمو إلا ضمن الإطار الذى حدده الله عز وجل له فيرحم المؤمنين ولا يرحم الكافرين، ويذبح الغنم والبقر والجمال وما أحل الله له أن يذبحه، ولا يجوز له أن تخرجه رحمته فيحرم هذه الأشياء وهكذا..

والله حليم، والإنسان حليم، ولكن استعداد الإنسان للحلم ينبغى أن يكون مقيدا فى الحدود التى حدها الله لهذا الحلم أن يظهر، فلا يحلم المسلم إذا انتهكت جرمات لله، ولا يحلم وهو يرى دين الله يضعف، ولكنه يحلم إذا اعتدى على ذاته مثلاً.

والله منتقم، والإنسان منتقم، ولكن لا يصح أن يخرج استعداد الإنسان للانتقام عن الحد الذى حده الله عز وجل للإنسان. فمن قتل أبى عمدا يحق لى أن أقتله انتقاما، ويحق لى أن أعفو وأن آخذ الدية، فإذا أخذت الدية حرم على بعد ذلك الانتقام، ومن أعتدى عليه رد الاعتداد بمثله، ولا يجوز له أن يتجاوز.

والله عفو، والإنسان عنده استعداد للعفو، ولكن هذا الاستعداد ينبغى أن يحد بما حده الله له، فقد أعفو عمن ظلمنى، ولكن عندما أكون قاضياً لا يجوز لى أن أعفو عن حد من حدود الله، كحد الزنا، ولا يجوز لى أن أعفو عن خصم يطالبه خصمه بحقه.

والله عز وجل مريد، وأعطى الإنسان إرادة، ولكن الله إرادته مطلقة ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود: ١٠٧] ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣] أما الإنسان فليس حراً أن يفعل ما يشاء، بل هو مقيد بالحدود التى حدها الله لاستعمال إرادته، وأى خروج عن هذه الحدود انحراف أخلاقى عن سوى الطريق.

والله تعالى مضل وهاد، إذا أضل فبحق وعدل، وإذا هدى فبحق وفضل، ولكن الإنسان مكلف أن يكون هادياً.

والله تعالى سميع ويسمع كل شىء، والإنسان سميع ولكنه مكلف ألا يسمع إلا ما أبيح سماعه، ويحرم عليه أن يسمع ما حرم عليه سماعه من غيبة وفسوق وكفر وموسيقى محرمة.

وهكذا قل فى كل اسم لله يكون عند البشر استعداد للظهور بمعناه.

(٣)

ومن ثم فقد حدد الله عز وجل للإنسان حدود الحلال والحرام فى كل شىء، حدود الهداية والضلال فى كل شىء، وعلى قدر وقوف الإنسان عند هذه الحدود يكون كماله وتكون كرامته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩] ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ* وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣، ١٤].

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

ونلاحظ في الآية الأخيرة أن تعدى حدود الله ظلم من الإنسان لنفسه. لأنه ما من حد حده الله عز وجل للإنسان إلا وهو لصالح الإنسان، فعندما منع الإنسان من أكل لحم الخنزير، وسباع البهائم، وشرب الخمر فذلك لصالحه، وعندما منع عن الزنا فذلك لصالحه إذ من زنا بغيره لابد أن يزنى بعرضه إذا عم الزنا، وبالتالى فسيعانى، فقد ينفق على غير ابنه ويتعب عليه.. وهكذا فى المعاملات الاقتصادية الوقوف عند الحلال والحرام لصالح الإنسان، وكذلك كل حد حده الله للإنسان فإنه لصالح الإنسان. وكلما كمل الإنسان أكثر كلما وقف عند الحدود، وتورع عن تجاوزها، أو حتى أن يقربها، فالزنا يقرب إليه الاختلاط بالنساء الأجانب، والنظر والحديث الذى لا ضرورة فيه، فكما يجتنب المسلم الحد الأصلى فإنه يجتنب ما يقرب إليه، بل ما يقرب إلى الذى يقرب إليه مما قد يكون غير واضح كثيراً.

يقول عليه السلام:

(إن الحلال بين وأن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن ترتع فيه ألا وأن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) متفق عليه.

وقال عليه السلام: (لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس) رواه الترمذى وقال: حديث حسن.

(٤)

وبالتالى فإن لله الأسماء الحسنى وصف ذاته بها، وهو رب، وأن العبد أعطى استعداداً للتخلق بأسماء الله مع العبودية لله، وعلى قدر استغراق الإنسان فى عبوديته لله، يكون كماله. إن بعض العلماء شرح الحديث: (إن الله تسعة وتسعين اسماً من

أحصاها دخل الجنة) بأن المقصود من إحصائها تقصى معرفتها، وتقصى ما يستطيع أن يتخلق الإنسان منها. إن كمالات الإنسان تظهر إذا صرف ما أعطى من استعداد فى الطريق الذى حدده الله عز وجل، طريق الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض.

الذى أعطى الإنسان هذا الكمال فى الخلقة والعقل والقدرة، والإرادة و البيان والصفات. فينبغى أن يقدم الإنسان له الشكر بخالص العبودية على ما أعطى ولا شكر أبلغ من الطاعة.

وإن إنساناً تمتع بهذا الذى أعطاه الله إياه كله، ثم لم يؤد شكر الله عليه، ولم يعرف الذى أعطاه إياه، لأكبر الجاهلين وأكبر الحمقى.

إنه لا أكمل من الله، فطاعته هى الكمال. وإن الإنسان الذى لا يعطى عبوديته وطاعته لله يعطيها فى العادة: إما لدولة تستعبده، أو لحزب يقيده، أو لمجتمع أو لهواه غير المعقول، أو لصنم، أو لكهنة صنم، أو لإنسان آخر، وللشيطان فى هذا كله، وبالتالى فإن الخروج عن العبودية لله، وقوع فى عبودية آلهة كاذبة خاطئة أخرى كثيرة.

أما عبد الله فحر يطيع المجتمع فى طاعة الله، ويطيع حزب الله فى طاعة الله، ويطيع حاكمه فى طاعة الله، ويطيع رسول الله لأن فى طاعته طاعة الله ﴿ **مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ** ﴾ [النساء: ٨٠] ولا يطيع فى كل حالة إلا الله، فهو عبد الله وحده، وعتيق من كل عبودية أخرى، ومن ثم كان المسلم أكمل البشر.

(٥)

ولو أن الإنسان استعرض أوامر الله، وما أدب الله به عباده، لوجد أن كل ما أدب الله به عباده كمال وصلاح، ونضرب أمثلة بسيطة:

– المسلم إذا تثاءب يضع يده على فمه، أهذا أولى وأكمل، أو الأولى أن يفتح فاه ليرى لهواته للآخرين.

– المسلم إذا عطس وضع كفيه على وجهه، أهذا أولى أو لا.

– المسلم إذا مشى فى طريق مشى بأناة وتواضع.. أهذا أولى أم التكبر والخيلاء على الآخرين.

– المسلم لا يؤذى أحداً فى مال أو عرض أو نفس.. أهذا أولى أم الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم ونفسهم.

إن أى أدب أو خلق أدب الله عز وجل به عباده هو الكمال ولا كمال سواه.

ثم ما ترك الله شيئاً إلا وعلم المسلم كيف ينبغى أن يكون سلوكه فيه ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [النحل: ٨٩].

وأمام هذا الشمول فى التعاليم، والكمال فى كل واحد منها، كان المسلم الحق أكمل الخلق على الاطلاق، ومع كون أخلاق الإسلام شاملة وكاملة ومثالية، ذاتها كذلك واقعية: فما كلفنا الله عز وجل شيئا إلا ونحن نستطيعه ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وادرس أوامر الإسلام واحداً واحداً، فى كل منها صلاح البشر، وأنه فى طوق البشر.. من صلاة، إلى صيام، إلى حج، إلى بيع، إلى شراء، إلى سلوك إلى كل شىء، ودراسة بسيطة لواحد من هؤلاء تلقى لك برهاناً على سهولة الإسلام:

الصيام مفروض على المسلمين شهراً فى السنة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ولكن النفساء والحائض يجب عليها الفطر، والمريض يحق له أن يفطر، والعاجز عن الصيام لسبب مبيح يحق له أن يفطر، والمسافر يجوز له الفطر، ومن إذا صام ازداد مرضه أو أبطأ برؤه جاز له الفطر إلى آخره.. فأنت ترى من هذا المثال كم روعى التسهيل على خلق الله فى أوامر الله.. أنها المثالية الواقعية التى ترفع الإنسان إلى أعلى وبلا حرج.

(٦)

ثم مظهر الكمال والإرتقاء فى هذه العبودية لله، إنها قيام بالواجبات كلها التى ينبغى أن يقوم بها الإنسان، وبعبارة أخرى أداء الحقوق إلى أصحابها.

(أ) فلله حق يجب أن يقام.

(ب) وللوالدين حقوق يجب أن تعطى.

(جـ) وللزوج والزوجة حق يجب أن يعطيه كل منهما للآخر وللأولاد كذلك.

(د) وللأقارب حقوق يجب أن تؤدى.

(هـ) وللجيران حقوق ينبغى أن تؤدى.

(و) وللعمل والحرفة حق ينبغى أن يؤدى.

(ز) وللمسلمين حقوق ينبغى أن تؤدى.

(ح) وللمواطنين من غير المسلمين حقوق يجب أن تحفظ.

(ط) وللدولة حقوق يجب أن تؤدى.

(ى) وللإنسانية كلها، ولكل ذى حياة حقوق يجب أن تؤدى، وحتى لكل شىء حق، والمسلم هو الإنسان الكامل الذى يعطى كل ذى حق حقه، فيؤدى واجبه على الشكل الكامل، والعبودية لله فى أحد جوانبها هى هذا.. والإنسان الذى لا يترك واجباً إلا قام به، لا يسبقه أحد فى مضمار الكمال الإنسانى.

* * *

وحق العباد عند الله يحاسب عليه الله أكثر مما هو له خاصة، إذ يجتمع فيه حقان حق الله في طاعة أمره فيه، وحق العباد المعطى لهم من الله فى ذلك، لذلك كان العفو عن حق الله الخالص، أقرب من العفو عن الحق الذى يشارك فيه المخلوقين.

(أ) **فحق الله** أن يؤمن بذاته وصفاته وأفعاله، وما أمرك أن تؤمن به من رسل وملائكة وكتب ويوم آخر وقدر، وما ورد فى ذلك على لسان الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

وحق الله أن تتخذه إلها فلا تتخذ معه آلهة أخرى.

فلا تطيع سواه إلا فى طاعته، ولا تحب غيره أكثر منه، ولا تدعو سواه ولا تتوكل ولا تعتمد إلا عليه، ولا تعظم غيره، ولا تقدم أى معنى من معانى العبادة إلا له.

وحق الله أن تذكره فلا تقفل عنه عملاً وسلوكاً.

وحق الله أن تتعاون مع المسلمين لإيجاد دولة تقيم حدوده وتنفذ أوامره.

وحق الله أن تجاهد فى سبيله حتى تكون كلمته هى العليا فى العالمين.

وحق الله أن تقتدى برسوله فى كل حال من أحواله ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١].

وحق الله كما أمر صلاة وصياما وزكاة وحجا وذكراً ودعاء، وحق الله أن تسلم له حكمه متى تأكدت أنه حكمه، وحق الله ألا تأكل مالاً إلا حلالاً، وألا تكسب إلا حلالاً، وأن تؤدى حقه فيه.

وحق الله مع هذا كله أن تؤدى الحقوق كلها لأصحابها، وأن تعمل هذا كله لله وحده، لا تبتغى بذلك إلا رضوانه وجنته، وكل شيء بعد ذلك من الخير الذى تحرص عليه يأتيك فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** [الإسراء: ١٨، ١٩].

وإذن فمن حق الله أن تنصر شريعته، وتقيم دولته، وتكون فردا من أمته، وتوحدها إن كانت ممزقة، وتقتدى برسله، وتجاهد فى سبيله حتى تكون كلمته هى العليا فى العالمين، ثم لا تطلب على ذلك أجراً من غيره أو جاها قال تعالى:

﴿ **قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا** ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص: ٨٣].

(ب) **وحق الوالدين** أن تطيعهما كبيراً كما أطاعاك صغيراً، وأن تنفق عليهما كبيراً كما أنفقا عليك صغيراً، وأن تخدمهما كبيراً كما خدماك صغيراً، وأن تحبهما كبيراً كما أحباك صغيراً وكبيراً، وأن تحسن صحبتهما كما أحسنا صحبتك، وأمك حقها أكبر من حق أبيك، لأنها تعبت أكثر، وحملتك فى بطنها، وأرضعتك ثديها، فلا تقدم عليهما زوجاً، ولا ولداً، ولا صديقاً، فمن الإنحراف الذى أخبر عنه الرسول، والذى يكون قبل قيام الساعة أن يبر الرجل صديقه ويعق أباه وأمه.

أخرج الشيخان: (جاء رجل فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتى قال: أمك، قال: ثم من، قال: أمك، قال: ثم من، قال: أمك، قال: ثم من، قال: أبوك).

وهذا الحق يبقى ضمن حدود الإسلام، والمعروف حتى لو كان الوالدان مشركين، إلا إذا أمراه بما يخالف الإسلام فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

أخرج الشيخان وأبو داوود عن أسماء قالت: (قدمت على أمى وهى مشركة فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى قال: نعم صلى أمك).

وحق الوالدين أن تبرهما وتحسن إليهما، والبر والإحسان كلمتان يدخل بهما كل خير، فالكلمة الخشنة ليست من البر والإحسان، وإثارة الغبار وهما جالسان ليس من الإحسان، والجلوس فى مكان مرتفع عليهما ليس من الإحسان، ووضعهما فى موضع أقل حسنا مما أنت فيه ليس من الإحسان، والإساءة إلى أصحابهما ليس إحساناً إليهما.

والأصل فى هذا قوله تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ الإسراء: ٢٣، ٢٤].

أخرج أبو داوود عن عمرو بن السائب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ كان جالساً فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه من الرضاعة فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل إليه أخوه من الرضاعة فقام رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه).

وأخرج أبو داوود (أن رجلاً قال: يا رسول الله.. هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما فقال: نعم: الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما وإكرام صديقهما).

وأخيراً فحق الوالدين أن ترضيهما فابحث عن وسائل الرضا، أخرج الترمذى (رضا الرب فى رضا الوالد وسخط الرب فى سخط الوالد).

(جـ) وللزوجة على الزوج حقوق:

وللزوج على الزوجة حقوق وقد مر معك سابقاً شيء من هذه الحقوق لكل.

وللأولاد على أبويهما حقوق.

فحق الأولاد على الآباء الكسوة والإطعام والتربية والإحسان والتأديب، واختيار الاسم الحسن، وإعدادهم للقيام بالواجبات ذكوراً وإناثاً.

إن الطفل غير مكلف فى الإسلام حتى يبلغ مبلغ الرجال، وذلك حوالى سن الخامسة عشرة، وحقه خلال هذه المرحلة مرحلة ما قبل التكليف أن يعد للقيام بواجباته على اختلاف أنواعها، سواء كانت عبادية، فيمرن على الصيام والصلاة، أو جهادية فيمرن على السباحة والركوب واستعمال أدوات الحرب والرمى، أو عملية فيعلم حرفة، أو لسانية فيقوم لسانه، ويعلم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أو أخلاقية فيمرن على كل خير، أو عقيدية فتوضح له كل جوانب العقيدة، أو علمياً فيتعلم فروض العين، ويعلم من الكتاب والسنة والفقه، ويتعلم فرضا من فروض الكفاية، ومن حقوق الأولاد المساواة بينهم، والعدل معهم، والأصول فى ذلك كثيرة منها:

دعاء إبراهيم لأولاده ووصيته لذريته: ﴿**وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٢] ﴿**رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ**﴾ [إبراهيم: ٤٠] ووصية لقمان لابنه ﴿**يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ* وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ* يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ* وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** [لقمان: ١٣ – ١٩].

ووصايا رسول الله ﷺ للأولاد وبالأولاد كثيرة:

أخرج الترمذى عن رسول الله ﷺ: (ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن).

(لأن يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق بصاع).

وأخرج أبو داوود عن رسول الله ﷺ: (من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو أختين أو بنتين فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة).

وأخرج الترمذى: (أمر رسول الله ﷺ بتسمية المولود يوم سابعه ووضع الأذى عنه والعق عنه) ومن وصايا الخلفاء (علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل).

ومن وصاياه عليه الصلاة والسلام: (أدبوا أولادكم على حب نبيكم وآل بيته وتلاوة القرآن).

ومن وصاياه: (يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك) (يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).

ولما جاءه أحد الناس يستشهده على عطية أعطاها أحد أولاده سأله: (أكل أولادك نحلت مثل هذا؟. قال: لا، قال: فإنى لا أشهد على جور).

والأصل الجامع ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦].

(د) وللأقارب وهم الأرحام حقوق:

رأيناها فى الفصل الماضى وما رتب عليها الإسلام من تكافل فى النفقة، وتكافل فى الزواج، ومآل الميراث إليهم، أو إلى بعضهم على حسب درجات القرابة، وحجب بعضهم لبعض فيه.

وزيادة على ذلك فإن حق القريب أن تعرفه، وأن تتعرف عليه، وأن تعقد بينك وبينه صلة يقول عليه الصلاة والسلام: (تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل مثراة فى المال منسأة فى الأثر).

ومن حقهم أن تصلهم بما تستطيعه من أنواع الصلة، وذلك من فرائض الإسلام، وأدنى ذلك السلام والزيارة والمراسلة والهدية، وقد جعل الله عز وجل أجر عطائك لأرحامك مضاعفاً على سواه.. يقول عليه الصلاة والسلام: (الصدقة على المسكين

صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان) ولقد قرن الله عز وجل فى كتابه قطيعة الرحم بالإفساد فى الأرض فقال منكرا على من يفعل ذلك:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢]، لأن قطع الإنسان صلاته مع أسرته دليل على تحلل ذاته، وفقدانها كثيراً من صفات الإنسان الأساسية، كالرحمة والود، ومن لم يحفظ ود أقاربه فحرى أن لا يحفظ حقوق الأبعد، ومن لم يعط المخلوق حقه، فحرى أن ينسى حقوق الخالق، لذلك كان عنوان القطيعة عن الله قطيعة الرحم يقول عليه الصلاة والسلام:

(الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله) أخرجه الشيخان.

(هـ) وللجيران حقوق:

وأدنى حق الجار ألا تؤذيه فى عرض أو مال أو نفس أو ولد، وجار السوء يجعل الإنسان فى حذر دائم، وخوف دائم، وشقاء دائم، لذلك كان التقصير فى إعطاء الجار هذا الحق الأدنى النار مهما فعل الإنسان من خيرات ومبرات.. يروى مسلم عن رسول الله ﷺ : (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه).

وذكروا لرسول الله ﷺ امرأة تصلى الكثير وتقوم الكثير ولكنها تؤذى جيرانها فقال: (هى فى النار).. والحق الثانى للجار ألا يضيع وجيرانه موجودون (والله لا يؤمن.. من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم).

ثم بعد ذلك الإحسان والصلة والبر وهى أمور لا تحد بحد وهذه أمثلة عليها:

أخرج أبو داوود والترمذى: (ذبحت شاة لابن عمر رضى الله عنه فقال لأهله هل أهديتم اليهودى قالوا: لا، قال: ابعثوا له منها فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه).

وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة فى جداره) أخرجه الستة إلا النسائى.. وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ : (لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة).. أى ظلفها.

وجعل عليه السلام الإحسان إلى الجار دليل الإيمان بالله واليوم الآخر فقال:

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره).

(و) وحق العمل:

أن تتقنه.. قال ﷺ : (إن الله يحب من أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه).

وألا تغش فيه (من غش فليس منا).

وأن تنجزه فى موعده لأن من علامات المنافق «إذا وعد أخلف».

وإذا كان تاجراً ألا يخدع وألا يكذب وألا يحلف فيه. يقول عليه الصلاة والسلام: (التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء) وقال: (اليمين الفاجرة منفقة للسلعة ممحقة للكسب).

وليعل من أهم الحقوق فى العمل أن يكون جائزاً فى شرع الله غير محرم ولا مكروه، لذلك كان شرط العمل الفقه فى العمل يقول عمر: (لا يبع فى سوقنا إلا من قد تفقه فى الدين).

وإذا كان عاملاً للدولة أو أجيراً عاماً أو خاصاً فحق العمل عليه أن يكون قوياً على العمل، أمينا فيه حفيظاً، لأجزائه، عليما بدقائقه وطرق تنفيذه،

نأخذ هذا من قوله تعالى:

﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦].

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥].

قال أبو ذر قلت يا رسول الله ألا تستعملنى؟ فضرب بيده على منكبى ثم قال: يا أبا ذر: إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها).

(ز) وحقوق المسلمين:

يقول عليه السلام: (حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام وعيادة المريض واتباع الجنازة وإجابة الدعوة وتشميت العاطس) أخرجه الخمسة وزاد مسلم فى رواية: (وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصحك فانصح له).

فمن حق المسلم أن تنصحه، يقول عليه السلام: (الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) (المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يظلمه، إن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذى فليمطه عنه).

ومن حق المسلم أن تسلم عليه، وفى الحديث: (والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السلام بينكم) رواه مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: (يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير) أخرجه الخمسة إلا النسائى.. ومن السلام المصافحة قال عليه السلام: (ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا) وقال: (تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء).

ومن حق المسلم عيادته إذا مرض وفى الحديث: (من عاد مريضاً لم يزل فى

خرفة الجنة حتى يرجع) رواه مسلم . . وقال عليه السلام : (من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله تعالى ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً) رواه الترمذى .

وقال عليه السلام : (من توضأ فأحسن الوضوء وعاد أخاه محتسباً بوعد من النار مسيرة سبعين خريفا) .

ومن حق المسلم اتباع جنازته :

يقول عليه السلام : (من تبع جنازة وحملها ثلاث مرات فقد مضى ما عليه من حقها) رواه الترمذى .

ومن حق المسلم تشميته إذا عطس :

يقول عليه السلام : (إذا عطس أحدكم فليقل : الحمد لله على كل حال وليقل له أخوه أو صاحبه : يرحمك الله ، فإذا قال له فليقل : يهديكم الله ويصلح بالكم) أخرجه البخارى .

ومن حق المسلم أن تجيبه إذا دعاك ، يقول عليه السلام : (أجيبوا هذه الدعوة إذا دعيتم) وكان ابن عمر يأتى الدعوة فى العرس وغيره وهو صائم (أى فى غير رمضان) أخرجه الخمسة إلا النسائى .

وفى رواية لأبى داوود : (من دعى ولم يجب فقد عصى الله ورسوله ، ومن دخل على غير دعوة دخل سارقا وخرج مغيرا) .

وأخرج أبو داوود : (إذا اجتمع داعيان فأجب أقربهما باباً ، فإن أقربهما باباً أقربهما جواراً . وإن سبق أحدهما فأجب الذى سبق) .

وحق المسلم ألا تظن به إلا خيراً ، وألا تتجسس عليه ، وألا تحسده ، وألا تبغضه ، وألا تسميه إلا بأحب أسمائه إليه ، وأن تعطيه أخوتك كاملة ، وألا تظلمه ، وألا تحتقره ، وألا تمس ماله ودمه وعرضه بأذى ، والأصل الجامع فى هذا قوله عليه السلام :

(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه ، إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره - ألا لا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) رواه مسلم .

ومن حق المسلم إذا كان أسيرا أن يفك أسره ، وإذا كان جائعاً أن يطعم وفى الحديث : (أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العانى) رواه البخارى .

ومن حق المسلم إذا حدثك ألا تفشى سره، وفى الحديث: (المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، واقتطاع مال بغير حق) رواه أبو داوود.

ومن حق المسلم أن يعان، وأن ينصر، وأن يستر، وأن يفرج عنه، وأن تقضى حاجته، وأن يكرم، ويوقر كبيرا، ويرحم صغيرا، وأن يدافع عنه فى غيبته، والأصول فى ذلك:

(ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر) رواه الترمذى.

كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: (اشفعوا تؤجروا ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء) أخرجه الخمسة.

(من ذب عن عرض أخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة) رواه الترمذى.

(من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام).

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة). رواه مسلم:

ومن حق المسلمين أن يحس الفرد بآلامهم ويحمل همومهم:

وفى حديث الحاكم: (من أصبح وهمه غير الله فليس من الله ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم) رواه ابن مسعود، وهو صحيح.

(مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) أخرجه الشيخان.

وهذه نماذج وإلا فالأمر أوسع من ذلك.

(ح) **وحق غير المسلمين**: من رعايا الدولة الإسلامية فى أرض الإسلام بعد أن يؤدوا ما عليهم من حق الاعتراف بسلطان المسلمين وأداء الجزية إليهم، الوفاء بعهدهم، فلا يؤخذ منهم زيادة على ما عوهدوا عليه، يقول عليه السلام: (لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم فيصالحونكم على صلح فلا تصيبوا منهم فوق ذلك فإنه لا يصلح لكم) رواه أبو داوود.

ويقول عليه السلام: (وإن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذى عليهم) رواه أبو داوود.

ويقول عليه السلام: (من قتل معاهداً متعهداً فى غير كنهه حرم الله تعالى عليه الجنة) رواه أبو داوود والنسائى.

وقال عليه السلام: (من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة).

وقد مر معك حقه ألا يجبر على تغيير دينه وألا يجادل إلا بالتى هى أحسن.

وإذا أسلم سقط عنه ما وجب عليه كذمى وأصبح كالمسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم.

(طـ) والدولة على أنواع:

إما كافرة، أو مسلمة فاسقة، أو مسلمة صالحة.

فإن كانت كافرة فواجب المسلم الجهاد فيها.

وأما المسلمة الفاسقة فأقل ما يفعله معها ألا يعينها على فسوقها.

يقول عليه السلام موصياً أحد الصحابة: (أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون بعدى من غشى أبوابهم وصدقهم فى كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ولا يرد الحوض، ومن لم يغش أبوابهم ولم يصدقهم فى كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو منى وأنا منه وسيرد على الحوض) أخرجه الترمذى.

وأما المسلمة الصالحة فمن حق الأمير فيها الطاعة فى المعروف فى العسر واليسر والمكره والمنشط، وإذا أمر فطاعته فريضة، وإذا نازعه أحد الحكم من ثائر أو خارج حورب، ووجب على المسلمين أن يكونوا مع أميرهم عليه، وكان حقاً عليهم أن يقتلوه.

يقول عليه السلام: (اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله) أخرجه البخارى.

وقال عليه السلام: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) أخرجه الخمسة.

وقال عليه السلام: (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية) أخرجه الشيخان.

وقال عليه السلام: (من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى) أخرجه الشيخان والنسائى.

وقال عليه السلام: (إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما).

وحق الطاعة شامل لكل ما يؤمر به المسلم ما دام فى المعروف، فإذا أمر المسلم فقد وجبت عليه الطاعة حتى لو أمر بمباح يصبح المباح فريضة يجب تنفيذها.

فمثلا لو أصدر الأمير قانوناً ينظم السير يصبح تنفيذه فرضاً، ومن خالفه آثم عند الله واستحق العقوبة فى الدنيا.

(ى) وما من شيء إلا وقد بين للمسلم الحق عليه فيه حتى الحجر، حتى الطريق، حتى الحيوان، حتى غير المسلم من خارج دار الإسلام، حتى الجن، حتى الملائكة، حتى الزوج، حتى عالم الغيب كله، حتى الطعام، حتى الشراب، إلى غير ذلك مما هو موجود فى هذا الكون.

فالمسلم إنسان الواجب الذى يعرف الحق لصاحب الحق، ويؤدى هذا الحق كاملاً مخبتة به نفسه، راضيا بذلك قلبه.

وقد ضربنا فيما مضى أمثلة علي هذه الحقوق التى يطالب بها المسلم، كى تعرف شمولها وكمالها، وكمال من يقوم بها، وإلا فمن أراد المعرفة الكاملة لذلك فلابد له من دراسة شاملة للكتاب والسنة، وكتب الفقه، يتتبع فيها الحقوق عليه، وعندئذ سيجد العجب من دقة ما علمنا من الحقوق التى علينا، وأقرأ هذا المثل من كتب الفقه:

(وعلى مالك البهيمة إطعامها وسقيها فإن امتنع أجبر فإن أبى أو عجز أجبر على بيعها أو إجارتها أو ذبحها إن كانت تؤكل ويحرم لعنها وتحميلها مشاقاً وحلبها بقدر ما يضر ولدها وضربها فى وجهها ووسمها فيه، وذبحها إن كانت لا تؤكل).

وأمثال هذا كثير مما بين به أدق الحقوق وأعلاها على أرقى ما يطمح إليه إنسان مستقيم الفطرة.

(٧)

وكما أن على المسلم واجبات، فإن له حقوق، فكل حق للزوجة، يقابله واجب عليها، وكل واجب على الرجل، يقابله حق له، وهكذا فى كل شيء.

إن الموظف الذى واجبه أن يقوم بأمانة وقوة وحفظ وعلم فى خدمة المسلمين باختصاصه، من حقه أن نؤمن له حاجاته الأساسية، يقول عليه السلام:

(من كان لنا عاملاً ولم يكن له زوجة فليتخذ زوجة، وليس له مسكن فليتخذ مسكناً، وليس له خادم فليتخذ خادما، وليس له دابة فليتخذ دابة).

المسلم الذى واجبه الطاعة لأميره من حقه على الأمير أن يرعى شئونه كلها، وأن يكو ن كفيلا لهذه الشئون حياً وميتاً وألا يضيع هذا المسلم فى أبسط لوازمه، يقول عليه السلام:

(أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فمن ترك دينا أو ضيعة فإلىَّ، ومن ترك مالاً فلورثته، وأنا مولى من لا مولى له، أرث ماله وأفك عانيه، والخالى مولى من لا مولى له يرث ماله ويفك عانيه).

(كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته) أخرجه الخمسة إلا النسائى.

ومن حق المسلم على الأمير ألا يحتجب عن حاجاته، يقول عليه السلام:

(من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجب الله تعالى دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة) رواه أبو داوود والترمذى.

ومن حق المسلمين على الأمير ألا يخونهم وألا يغشهم، يقول عليه السلام:

(ما من عبد مسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) رواه الشيخان.

ومن حق المسلمين على الأمير أن يسوسهم بالعدل، يقول عليه السلام: (إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا) أ خرجه مسلم والنسائى.

ومن حق المسلمين على الأمير أن يسوسهم بالرفق واللين والرحمة، يقول عليه السلام: (إن شر الرعاء الحطمة) رواه مسلم، والحطمة: هو العنيف فى سوقه وإيراده وإصداره.

ومن حقوق المسلم على الدولة ألا تدخل بيته إلا بإذنه ما دام لم تظهر فى بيته ريبة، وألا تؤاخذه إذا انتقدها بحق، بل تتراجع أمامه عن باطلها ولو كان أقل المسلمين شأناً، ومن حقه ألا يحبس عن أهله فى مهمة، ولو كان جندياً أكثر من فترة معينة وهكذا.

ولكن كون المسلم يؤدى الواجبات هو الحل الوحيد كى يأخذ حقوقه كاملة، إذ عندما يكون أفراد مجتمع لا يقومون بواجباتهم فعندئذ يضيع حق كل واحد منهم جزاء تفريطه بواجبه، لذلك كان الحل الإسلامى لأخذ كل مواطن حقه هو أن يقوم كل مواطن بواجبه، والدولة مسئولة عن تقصير أى فرد بواجبه، والمسلمون مسئولون إذا قصرت الدولة، وبالتالى فلا يضيع أى حق فى مجتمع إسلامى سليم. ومن هنا كان المجتمع الإسلامى مثالياً بهذه الأخلاقية الواقعية بكل مظاهره، فلا يضيع حق على حساب حق آخر.. يقول عليه السلام: (فإن لأهلك عليك حقاً وإن لضيفك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً).

ولما قال سلمان لأبى الدرداء: (إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فأعط كل ذى حق حقه) قال عليه السلام: (صدق سلمان).

(٨)

ولكن لنفرض فرضاً إن المسلم منع حقوقه، فهل يعفيه هذا من أداء واجباته؟ أو هل يتخلى المسلم عن مثاليته فى ظرف من الظروف: أبداً.. فالمسلم لا يقوم بواجباته بقصد أن تؤدى له حقوقه بل يقوم بواجباته لأنه.يعتبر نفسه مكلفاً بها من الله، ومحاسباً عليها أمام الله، وهو إذا قام بها فإنما يقوم بها لله، وانحراف الناس عامة، ومرض الناس عامة، وتقصير الناس عامة، وفساد الناس عامه، كل ذلك لا يعفى المسلم من القيام بواجباته، يقول عليه السلام:

(وسيكون بعدى خلفاء فيكثرون) قالوا: فما تأمرنا؟ قال: (أوفوا ببيعة الأول ثم أعطوهم حقهم واسألوا الله تعالى الذى لكم، فإن الله تعالى سائلهم عما استرعاهم) أخرجه الشيخان.

ويقول عليه السلام: (لا يكن أحدكم امعة، يقول: أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وأن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم) أخرجه الترمذى. فالمسلم لا يبالى رضى الناس عليه أو سخطوا وإنما الذى يبالى به هو أن يقوم بحق الله عليه متوكلاً على الله تعالى وحده.

يقول عليه السلام: (من التمس رضا الله يسخط الناس كفاه الله تعالى مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى إلى الناس) أخرجه الترمذى.

إن المسلم لا يقوم بواجباته لمنفعة أو غاية دنيوية أو مغنم أو جاه، فكل ذلك لا يجوز وإن كان قد يأتى تبعاً، ولكنه يقوم بذلك لأمر الله له، ولو كلفه ذلك حياته وماله ووقته وصحته وبدنه وشرفه وجاهه، وقد رأينا فى مبحث صفات الرسول ﷺ كيف قام عليه السلام بواجباته مع ما كلفه ذلك من مشقة وجهد وعذاب وإيلام، وكل إنسان مسلم له فى الرسول ﷺ أسوة حسنة، والرسول عليه السلام كما رأيت من عمله كان يقوم بالواجب، بصرف النظر عن النتائج سواء أكانت لصالحة أو لغير صالحه، ومن هنا نعلم أن هؤلاء الذين يفسدون لأن الناس فسدوا، وينحرفون لأن الناس انحرفوا، ويتركون الإسلام لأن الناس تركوا، ويضلون لأن الناس ضلوا، ويأكلون الربا لأن الناس أكلوا، ويتساهلون فى الحلال والحرام لأن الناس تساهلوا، هؤلاء فى الحقيقة إن استحلوا ما عملوه بحجة أن الناس عملوا، كفروا وما هم بمسلمين، وإن لم يستحلوا فقد فسقوا عن أمر الله وحق عليهم قوله تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۞ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾

[مريم: ٥٩، ٦٠].

إن المسلم كما قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أبو داوود.

(عجب ربنا من رجل غزا فى سبيل الله تعالى فإنهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أريق دمه، فيقول الله تعالى للملائكة: انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقا مما عندى حتى أريق دمه، أشهدكم أنى قد غفرت له).

(٩)

والحقيقة إن الإنسان لا يكمل إلا إذا أطلقت طاقاته الجسمية فى طريقها الصحيح، وطاقاته العقلية فى طريقها الصحيح، وطاقاته النفسية فى طريقها الصحيح، عندئذ يكون كاملا، وإلا فهل يكمل إنسان فقد صفة الرحمة من ذاته، أو صفة الحنان، أو صفة الحلم، أو صفة الكرم؟ إن فقد الإنسان لأى صفة من صفاته الأساسية يخرجه عن الكمال، لذلك كان الإسلام هو الطريق الفطرى لتنمية هذه الأخلاق الأساسية للإنسان، ففرض فيه على الإنسان أن يتحقق بهذه الصفات وأن يلتزم بها سلوكا.

ثم هل يكمل إنسان وهو منحرف أخلاقياً؟ إن الحسد ظاهرة مرضية لصفة جيدة هى التنافس، فالله عز وجل غرس فى نفس الإنسان حب منافسة الآخرين ليتسابق الناس فى الخير، فإذا انحرفت هذه الصفة حتى أصبحت حسدا، يتمنى به الإنسان أن يذهب كل خير حصل للناس لأنه لا يقدر عليه، فهذه ظاهرة مرضية لا يكون معها الإنسان كاملاً، وكذلك كل ظاهرة مرضية أخلاقية أخرى. ولذلك فكما بين الإسلام طريق تنمية الأخلاق الصالحة كلها بالإنسان، فقد بين الظواهر المرضية للأخلاق وربى المسلم على تركها.

فكان الإسلام بذلك هو الطريق الفطرى لقطع الطريق على أى انحراف تطمح إليه نفس الإنسان.

والإنسان جسد، هذا الجسد ينبغى أن ينمى ويقوى ويرتفع مستواه، ويحافظ عليه، ولا يستعمل كل عضو فيه إلا فيما ينبغى أن يستعمل، والمسلم هو الإنسان الوحيد الذى يرقى بجسمه نحو كل خير، ويبعده عن كل ما يضر، ويستعمل كل عضو فيه فيما ينبغى أن يستعمل فيه، وكذلك أطلق الإسلام طاقات العقل، ففرض على الإنسان أن يفكر ودله على طريق التجربة، وحرم عليه أن يدخل عقله ما لم يقم عليه دليل، وفرض عليه أن يتعلم، وطالبه بألا يحرص على شىء حرصه على العلم.

وكذلك أطلق الإسلام طاقات الروح والنفس البشرية فى الطريق الصحيح، فللروح تطلعاتها إلى الخلود والبقاء، فدلها على طريقه تحقيق هذا الخلود المنعم، وللنفس حاجات ضرورية وحاجية، وكمالية معقولة مقبولة، أعطى الإسلام للنفس حق تحقيقها عن طريق صحيح سليم.

وهكذا لم يبق الإسلام طاقة عند الإنسان معطلة، ولم يسمح لطاقة أن تعمل إلا فيما يفيد وفيما خلقت له. فكان المسلم هو الإنسان الكامل انطلاقاً من قلبه الذى يمثل الكمال فى القلوب من حيث مشاعره وإحساساته وسروره وحزنه ووضوح رؤياه الحق إلى كل شىء فى المسلم.

فلا يكمل إنسان إلا بالإسلام.

* * *

(١٠)

وبعد.. لقد كانت الأخلاق الإسلامية فيها كمال الإنسان لأنها:

١ - تفجير لطاقات الإنسان كلها فى طريقها الصحيح: العلمية، والعقلية، والروحية، والنفسية، والجسدية، فلا تبقى طاقة معطلة: العلم فريضة، والتفكير فريضة، والصفا الروحى فريضة، والأخلاق الفطرية اكتسابها والتحقق بها فريضة، وتدريب الجسم فريضة. والزواج فى الإسلام أفضل من التفرغ لعبادة الله كما نص على ذلك فقهاء الحنفية..

٢ - إن كثيرا من أخلاق النفس الإنسانية تموت لعدم استعمالها وتنميتها، أما فى الإسلام فلا يبقى خلق للنفس إلا وقد نمى: من الحنان، إلى الكرم، إلى الحلم، إلى الهداية، إلى الرحمة، إلى اللطف.. وما من خلق للنفس إلا ونمى التنمية الصحيحة السليمة.

٣ - إن كثيرا من الظواهر المرضية للنفس تنمو عند الكافرين، كالحسد، والغل، والحقد، والكبر، والتعالى. أما فى الإسلام فإن هذه الظواهر المرضية للنفس تجتث اجتثاثاً.

٤ - إن بالأخلاق الإسلامية وحدها يحقق الإنسان حكمة وجوده، ويعثر بها على محله الصحيح فى الوجود، وهو أنه سيد الكون وعبد الله.

٥ - إن الأخلاق الإسلامية وحدها التى تجعل الإنسان يؤدى إلى كل ذى حق حقه حيوانا كان أو إنساناً أو جماداً أو نباتاً فضلاً عن قيامه بحقوق الله رب العالمين.

وبهذا يكون المسلم وحده هو الإنسان فى وضعه السليم الصحيح، وما عداه فلا يطلق عليه صفة الإنسانية إلا تجوزاً.

إن الله قد خلق رسوله مستجمعاً لكل الكمالات الإنسانية التى لا يبقى معها مزيد لمستزيد. وقد رأينا هذا كله فى الفصل الأول من كتاب «الرسول ﷺ».

فإذا ما فرض الله على كل مسلم ومسلمة أن يقتديا برسول الله ﷺ فشىء عادى إذن أن يكون المسلم الحق مستجمعاً من الكمال ما لا يستجمعه أحد، وعلى هذا فيكفى أن يدرس القارىء ذلك الباب عن رسول الله ﷺ ليعرف بالتالى إلى أى حد ترتقى أخلاق الإسلام بالإنسان.

* * *

ويبقى بعد ذلك قضيتان :

١ – قضية الحكم بالحسن أو القبح علي الأخلاق .

٢ – قضية الأخلاق الأساسية والفرعية .

(١)

إن كل مخلوق فى الوجود طباعه وعاداته التى طبع عليها، للحيوان عاداته، وللإنسان عاداته وأخلاقه . ولكن عادات الحيوان محدودة ورتيبة لضآلة دائرة عمله وإرادته وقدرته، ومحدودية جسده، أما الإنسان فالأمر بالنسبة له يختلف، فقد أوتى من العلم والإرادة والقدرة والبيان والكمال الجسدى ما لم يؤته غيره، ولذلك كانت دائرة العادات البشرية، والطباع والأخلاق الإنسانية كثيرة جداً، فكان كأثر عن ذلك لكل شعب فى العالم عادات تختلف عن عادات غيره، ولكل قبيلة، ولكل أسرة، ولكل أمة، ولكل جنس، وحتى لكل فرد طباع وأخلاق تختلف عن غيرها .

* * *

وعندما تدرس هذه الأخلاق تجد بعضها يشترك فيه الكبير، وبعضها خاص بأفراده، وبعضها قريب القبول من الناس، وبعضها بعيد، وبعضها يقبله العقل، وبعضها يرفضه، وبعضها يتفق مع سنن الكون، وبعضها يختلف، وبعضها الحسن الذى يجمع الناس على حسنه، وبعضها السيء الذى يجمع الناس على رفضه، وبعضها يتنازع فيه الناس وبعضها متغير، وبعضها ثابت .

بعض الناس تملى عليهم أخلاقهم شهواتهم، وبعض الناس تملى عليهم أخلاقهم الألفة، وبعضهم يملى عليهم أخلاقهم مفكروهم أو زعماؤهم الدينيون أو السياسيون، وبعضهم يملى عليهم أخلاقهم نتائج تفكيرهم .

ومن الناس من عنده استعداد لنوع معين من السلوك، ومن الناس من عنده استعد اد لنوع آخر مختلف .

ومن الناس من تصل بهم تجربتهم إلى نوع معين من الأخلاق، وأهل البلاد الباردة أكثر هدوءا، وأهل البلاد الحارة أكثر كسلا .

والنباتيون تختلف أخلاقهم عن أكلة اللحوم .

* * *

هذه الأخلاق منها الحسن ومنها السيء، منها الطيب الكريم ومنها الخبيث اللئيم :

الغش خلق سيء لما يترتب عليه من آثار سيئة على صاحبه وعلى الناس، أما على صاحبه فلأن الناس سيعرفونه بالنهاية، وبالتالى يخسر ثقة الناس به . فإن كان تاجرا كسدت تجارته، وإن كان طبيباً تركه الناس . وأما على الناس فلأن الإنسان لم يحصل غرضه الذى أراده على الوجه المقصود .

والإخلال بالوعد خلق سيء لما يترتب عليه من آثار سيئة فى حياة الناس من تعطيل أوقات، وهدر طاقات، وفقد ثقة الناس بالكلام.

والكذب خلق سيء لما يترتب عليه من أكل حقوق، أو هدر حقوق، أو تهرب من واجبات، فلا يصدق قائل، ولا يعرف صحة قول إلا بعد جهد وتنقيح وتعقيد، وفى ذلك ما فيه من تعطيل الحركة الاجتماعية.

ولكن من الذى يحكم على كل خلق بأنه حسن وأنه قبيح؟.

هل يستقل العقل بالحكم على الأخلاق حسنها وقبيحها؟.

أو هل تستقل التجربة بتبيان حسن الخلق أو قبحه من نتائجها؟.

لا شك أن العقل يستطيع لو فكر تفكيراً سليماً أن يصل إلى أحكام صحيحة فى الحكم على بعض الأخلاق فمثلا لو فكر الإنسان تفكيراً سليماً فى موضوع اللواط فإنه يجد أنه انحراف عن الفطرة لأن المشاهد أن الشهوة الجنسية ركبت فى الذكر والأنثى من أجل أن يلتقيا جنسيا ليبقى النوع، فاتصال الذكر بالذكر انحراف عن الفطرة، ثم إن عملية اللواط عملية تتقزز منها النفس لأنها فى مكان قذر..

فالعقل يستطيع بالنهاية أن يصدر حكماً سليماً على أن اللواط خلق سيء لأنه لو عمم بين الرجال وعمم السحاق بين النساء لتلاشى الجنس البشرى.

وبالتجربة يستطيع الإنسان أن يتبين أن التسويف بإنجاز الواجبات خلق سيء، إذ التسويف يؤدى إلى تراكم العمل، وبالتالى إجهاد المكلف به، ويؤدى إلى تعطيل كثير من شئون الناس.

ولكن فى المقابل فإن العقل البشرى، والتجربة الإنسانية، ليسا كافيين للحكم على كل الأخلاق، وليست أحكامها قطعية كذلك فيما يحكمان فيه.

* * *

١ – لأن العقل البشرى ليس محيطاً إحاطة تجعله يصدر أحكاماً على كل شيء.

٢ – لأن بعض الأخلاق يصعب ترجيح أحد جانبى الخير أو الشر فى الحكم عليها لتعقيدها.

٣ – لأن شهوات الإنسان وأهواءه تؤثران على أحكامه.

٤ – لأن نتائج التجربة قد لا تظهر إلا بعد مدة طويلة فى كثير من الأخلاق والسلوك.

٥ – أن عقول البشر قد تتفاوت، وتجاربهم قد تتفاوت، وبالتالى لا يلتقون على تحسين شيء ولا تقبيحه.

٦ – كثير من الأخلاق تظهر وكأنها نسبية فما فيه مصلحة لى قد يكون فيه مفسدة للآخرين.

٧ – نزوع الإنسان إلى الأنانية يجعل الأخلاقية متعطلة بواقعه كفرد، وبالمجموع كأمة أو كشعب أو كأبناء وطن.

ومن ثم فقد جعل الله عز وجل إليه أمر إصدار الأحكام وتحسين الحسن وتقبيح القبيح ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ** ﴾ [الأنعام: ٥٧] لأنه وحده جل جلاله المحيط علما، الحكيم المنزه عن الخطأ، والمنزه عن المصلحة، والغنى عن خلقه، وهو الخالق للإنسان، فليس لغيره حق الحكم على الإنسان.

والله عز وجل إنما يبلغ أحكامه لخلقه بواسطة رسله الذين قامت الحجة على الناس بأنهم رسله بالصفات والمعجزات والآثار وببعثة رسول الله ﷺ إلى كل الناس عامة وللأقوام كلها، وللأجيال كلها، فقد تحدد للبشرية كل ما ينبغى أن تفعله، وما ينبغى أن تذره، لذلك لم يبق خلق حسن إلا وقد بين حتى تمت مكارم الأخلاق كلها. يقول عليه السلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) سواء مكارم الأخلاق التى جاء بها الرسل السابقون، أو مكارم الأخلاق التى اهتدى إليها الناس فى كل العصور، أو مكارم الأخلاق التى كان عليها العرب قبله عليه السلام. فكانت رسالته جامعة لكل خلق حسن، حتى لا يبقى وضع إلا وقد عرفت فيه أخلاق النبوة ﴿ **وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ** ﴾ [النساء: ٢٦] ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ [الأنعام: ٩٠] ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** ﴾ [المائدة: ٣].

* * *

والصيغة التعليمية لهذا الصرح من مكارم الأخلاق الذى وضع الله البشرية أمامه وألزمها به، مظهرها الكتاب والسنة اللذان لم يتركا شاردة ولا واردة يحتاجها البشر من الهداية إلا وقد فصلت لهم، كما وصف الله كتابه: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ **مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف: ١١١].

وكما وصف رسول الله ﷺ تعاليمه:

(وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء).

* * *

ومن ثم لم يبق جانب من جوانب الحياة الإنسانية إلا وقد صيغ فى الإسلام صياغة أخلاقية: الجانب النظرى والجانب العملى، العقائد والعبادات، الجانب

الاقتصادى، والجانب السياسى، والجانب الثقافى، والجانب العسكرى، والجانب الاجتماعى، وجعلت هذه الجوانب كلها بشكل متكامل، فلا تبقى قضية من قضايا الإنسان إلا وقد بين له ما ينبغى أن يفعل فيها، وما هو الأعدل والأقوم؟.

وكل هذه القضايا صيغت ليبقى الإنسان فى دائرة مكارم الأخلاق، مجتنباً سيئها، مقبلاً على طيبها، وروعى فى هذا كله طبيعة البشر، فمنهم من لا يرضيه فى نفسه إلا العدل، ومنهم من عنده استعداد للفضل، ومنهم من لا يعرف إلا الجور، فمن سار فى طريق الجور قوم، وتقويمه من مكارم الأخلاق.

ومن لا يقبل إلا العدل أعطيه ولم يبعد عن مكارم الأخلاق، ومن عنده استعداد للفضل، بينت له الحدود التى يحلق فيها إلى الآفاق العليا للسلوك البشرى.

وقد جعلت التربية الإسلامية هدفها الوصول إلى إنسانية تتعايش بمكارم الأخلاق العليا، وراعت بعد ذلك طبائع الكثير من البشر، فأبقت لهم طريق سلوك الحد الأدنى من مكارم الأخلاق مفتوحا، وقطعت على غير هؤلاء وهؤلاء طريقهم، حتى لا تفسد الحياة البشرية بظهور الضعة وخسة الأخلاق.

(٢)

هذه الأخلاق التامة الكاملة التى جمعت كل خلق حسن عرفته البشرية من قبل، دلت البشرية على كل خلق حسن من بعد، والتى أعطت البشرية الصورة الثابتة الوحيدة لصرح الكمال الأخلاقى فى كل شىء، بمقدار ما يأخذ الإنسان منها يرتفع، وبمقدار ما يحمل نفسه عليها ترتقى إنسانيته، وبمقدار ما يتخلى عن جزء منها يسفل ويهبط.

فهى الميزان التى توزن به صفة الإنسانية عند البشر، فمن أخذ حظه منها كاملاً كان الإنسان الكامل، ومن أخذ بعضا منها كان نقصه بمقدار ما فرط.

ولا يحصلها الإنسان كاملا إلا إذا غاص فى بحار الكتاب والسنة، والنماذج العملية لذلك: الصحابة.

غير أن هناك أخلاقاً تعتبر أساسية هى بمثابة الأصول، وهناك أخلاق تعتبر فروعاً من تلك الأصول، وليس تضييع فرع كتضييع أصل، ولذلك كان من أهم ما ينبغى أن يعرفه المسلم، الأخلاق الإسلامية الجامعة التى لا يستكمل بناءه الأخلاقى إذا فقد واحداً منها، ولعل من أهم ما وقع التفريط به من قبل المسلمين هو هذا، فقد ضخم بعضهم خلقاً من أخلاق الإسلام، وصغر خلقاً آخر مع أنهما قد يكونان فى ميزان الإسلام سواء، مما أدى إلى ضياع كثير من أمهات الأخلاق الإسلامية، ونسيان المسلمين لها، ونتج عن ذلك أن فقدت الشخصية الإسلامية جمالها وكمالها وتناسق سلوكها وتكامله.

فمثلا: من السور التى يحفظها كل مسلم قوله تعالى: ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [سورة العصر] فأنت ترى أن هذه السورة قد جمعت أربعة أخلاق لو نقص خلق منها لوقع الإنسان فى الخسران، بينما تجد عملياً أن الخلقين الأولين قد سلطت عليهما أضواء التطبيق، بينما كان الخلقان الآخران مهملين إلا فى النادر.

وزاد الطين بلة، إن كثيرا من الأخلاق التى سلطت عليها الأضواء أكثر من غيرها، لم تفهم الفهم الصحيح المستوعب لكل جوانبها، وأبرز مثال على ذلك، وعلى ما قبله، موقف كثير من المسلمين من أمثال هذه الآية:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة: ٣٥] فهاهنا علق الفلاح على أخلاق ثلاثة: التقوى وابتغاء الوسيلة، والجهاد، ولكن الملاحظ أن الجهاد لم يأخذ من عناية المسلمين ما أخذته التقوى، ولكن لا التقوى فهمت فهما شاملاً صحيحاً كما وضحها القرآن، ولا الجهاد أبرزت كل مضامينه، وهكذا قل فى كثير من الأخلاق الإسلامية الأساسية.

* * *

وهذا مكمن الفرق بين شخصية المسلم الأول الذى رباه رسول الله ﷺ، وبين شخصية المسلم فى العصور التى تلت، المسلم الأول لا تشاء أن ترى خلقاً من أخلاق الإسلام إلا وجدته فيه، أما المسلم بعد ذلك فصرت ترى جوانب من الإسلام متضخمة عنده، وأخرى قد فرط فيها.

المسلم الأول كان عالماً، وزاهداً، وعابداً، ومقاتلاً، وداعياً، وجريئاً، وصريحاً، وحكيماً، ولسناً، وسياسياً، وإدارياً، وكيساً، وفطناً.. والمسلم بعد ذلك لم يعد كذلك، صرت تجد عالماً لا يعرف القتال، ومقاتلاً لا يعرف الله، وسياسياً ليس عليماً ولا حكيماً، وهكذا ضاعت الشخصية الإسلامية النموذجية التى يفترض أن يكون عليها كل مسلم، فلم نرها إلا بأفراد مهما كثروا، فهم قلة إذا قيسوا ببقية المسلمين.

* * *

لذلك وجدنا أنه لابد أن نعيد إلى الأذهان الصورة الصحيحة للأخلاق الأساسية فى الإسلام، التى إذا فقد المسلم خلقاً منها كان على شفا هلكة. وحاولنا فى كتاب آخر أن نعطى لكل خلق من هذه الأخلاق مدلوله الصحيح، ومضمونه الواسع المستمد من الكتاب والسنة، وحاولنا هناك ألا ننسى تبيان الطريق الذى يتحقق به المسلم بهذه الأخلاق، والأمل بفضل الله كبير أن تعود الأخلاق الإسلامية

إلى الظهور مرة ثانية ليحيا بها الإسلام من جديد، ولتحيا بعد ذلك الأرض بالإسلام من جديد وتتطهر.

ولا شك أن الأخلاق الأساسية فى الإسلام كثيرة، ولكن عند التتبع يجد الإنسان أن كثيرا من الأخلاق التى ذكرت فى الكتاب والسنة تتفرع عن أصل جامع، ولما كانت غايتنا هى الوصول إلى هذه الأصول الجامعة التى تتفرع عنها كل الأخلاق الأخرى، ولا يصح التفريط فى واحد منها، اتجه البحث عن هذه الأخلاق، وبعد التتبع وجدنا أن أمهات الأخلاق التى تتفرع عنها كل الأخلاق الإسلامية هى التى وصف الله عز وجل بها حزبه فى القرآن، إذ وجدنا أنه ما من خلق فى الإسلام إلا ويرجع إلى صفة من هذه الصفات.

ولنرى المسألة بوضوح نقول:

إن كلمة حزب الله ذكرت مرتين فى القرآن: مرة فى سورة المائدة، ومرة فى سورة المجادلة.

أما فى سورة المائدة فقد ذكرت بعد هذه الآيات:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ* إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٤ – ٥٦].

والملاحظ أن هذه الآيات كلها فى وصف حزب الله بدليل ذكر الغلبة فى الأخير، والردة فى الأول، والقوم الذين يقفون فى وجه الردة فى الوسط، فلابد أن الذين يستحقون الغلبة هم هؤلاء القوم الذين يجابهون المرتدين وبالتالى فهم حزب الله.

وأما فى سورة المجادلة فقد ذكرت كلمة حزب الله بعد ما يلى:

﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبعد التحقيق نجد أنه ما من صفة ولا خلق ذكر بعد ذلك فى القرآن إلا ويمكن إرجاعه إلى واحد من الأخلاق المذكورة فى هذين النصين، فمثلاً: التقوى مرجعها إلى

الصفة الأولى: ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ لأن الله يقول: ﴿ **وَاللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ والصلاة مرجعها إلى التقوى، لأن الله يقول: ﴿ **هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** ﴾ [البقرة: ٢، ٣] والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مرجعه إلى ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾ [المائدة: ٥٤] وعلى هذا قس، وكل ما كتبناه فى الكتاب الذى عقدناه لبيان هذه الأخلاق يصلح أن يكون دليلاً على أن هذه الصفات هى أمهات الأخلاق الإسلامية.

* * *

ولابد هنا من الإشارة إلى شيء هو:

إن إحياء هذه الأخلاق مجتمعة هو الطريق الوحيد للقضاء على الردة أو شبه الردة الحالية المنتشرة فى العالم الإسلامى، فلا شك أن العالم الإسلامى الآن فى حالة ردة فظيعة قد تكون فى بعض جوانبها أفظع من الردة القديمة وأشمل:

والآيات هذه تذكر إن الردة حال وقوعها لا يقف لها ولا يصمد ولا يقضى عليها إلا قوم اصطفاهم الله لذلك وهم المتصفون بالصفات التى أشارت إليها الآيات، فلا يمكن إذن أن يكون غيرهم ممن فقد صفة من هذه الصفات مرشحاً للقيام بمثل هذا العبء الجليل الخطير، ولذلك خصصنا لها كتاباً مستقلاً، وعلى هذا فدراستنا لهذه الأخلاق ينبغى أن تكون عملية، القصد منها التطبيق والتحقق قبل أى شيء آخر.

كما أن مثل هذه الدراسة تحتمها مسئوليتنا أمام الله وقد وجدنا فى مثل هذا العصر:

قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣١].

وقد ذكرت الآيات التى رأيناها خمسة أخلاق هى:

١ - يحبهم ويحبونه.

٢ - أذلة على المؤمنين.

٣ - أعزة على الكافرين.

٤ - يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم.

٥ - إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون.

والملاحظ أن آية المجادلة أشارت إلى الصفة الخامسة فقط على اعتبار أنها ذروة

صفات حزب الله، ولكنها ليست الوحيدة فلا يكون الإنسان مستجمعاً صفات حزب الله حتى يجمع الصفات الخمس: فمن لم يكن ذليلاً على المؤمنين فليس من أهل هذا المقام، ومن لم يجاهد فليس من أهل هذا المقام، ومن لم يحب الله ويحبه الله فليس من أهل هذا المقام، ومن والى غير المؤمنين فليس من أهل هذا المقام، ومن والى غير الله والرسول ﷺ فليس من أهل هذا المقام.

ولما كان التفصيل فى هذه الأخلاق ضرورياً لعصرنا الذى استشرت فيه الردة، وكان هذا التفصيل سيؤدى إلى سعة هذا الكتاب بشكل كبير جداً رأينا أن نفصل هذا الموضوع بكتاب مستقل هو «**جند الله: ثقافة وأخلاقا**» وقد فصلنا فى ذلك الكتاب كل ما يدخل تحت هذه الصفات الخمس فاستعرضنا معنى الولاء، وبينا حدوده، وذكرنا الطرق التى ذكرت فى الكتاب والسنة مما يؤدى إلى محبة الله، وبينا مضامين الذلة على المؤمنين، والعزة على الكافرين، وذكرنا أنواع الجهاد فى الإسلام وكيف يقوم كل نوع. فكان كتاباً يحتاجه المسلم فى عصرنا لأنه الكتاب الذى بين نقطة الإنطلاق فى تصفية مشاكل الأمة الإسلامية المعاصرة. هذا مع تعرض الكتاب لجوانب كثيرة أخرى يحتاج المسلم المعاصر أن يأخذ حظه منها. فإلى ذلك الكتاب ليعرف المسلم الصورة المتكاملة للأخلاق الأساسية فى الإسلام ولما كان موضوعه يكمل موضوع هذا الكتاب من عدة جوانب فقد جعلناه كجزء من هذه السلسلة التى أخرجناها تحت عنوان: (دراسات منهجية هادفة).

ونؤثر بعد إحالتنا على ذلك الكتاب أن نغلق هذا الفصل بعد أن أخذنا صورة عن القضايا الأساسية فى النظامين الاجتماعى والأخلاقى فى الإسلام لنبدأ الحديث عن مناهج الحياة العامة فى الإسلام.

* * *